٤

العالمة

جليلة سيد درويش

فى الفترة الأولى من حياة سيد درويش قصة حب تعرف خلالها على امرأة أسلمته إلى الحيرة طويلا، قبل أن يعود للناس والجماهير الشعبية بجميع طبقاتها..

من هذه المرأة التى – من أجلها – راح يغنى، وكأنه يَنُوْح:

ضيعت مستقبل حياتى فى هواك ؟

من هذه العالمة التى ظلت تطارده حتى بلغ درجة اليأس فراح يغنى فيما يشبه الصياح:

أنا هويت وانتهيت ! !

فلاش باك :

تقول حياة سيد درويش الفنان المصرى الأصيل: إنه فى أحد أفراح الإسكندرية، وقد كان هو مدعوًّا ليغنى تعرف على (عالمة) اسمها جليلة..

ويقول لنا الذين عرفوا سيد عن قرب إن جليلة هذه، كانت من أجمل نساء الإسكندرية فى وقتها، وكانت تتميز عن غيرها من نساء هذه الفئة التى تتمايل وترقص فى الأفراح، بأنها كانت ضخمة الجثة، فارهة الطول، جميلة جمالا لا يوصف..

ويقول لنا شاهدو هذا العصر إن جليلة هذه كانت امرأة لعوبا، ومن هنا، فإنه ما كاد الفنان يتعرف عليها، وما كادت تتجاوب معه قليلا، حتى عادت – شأن الغانيات دائمًا – تصده..

وكان هذا الصَّدّ منها يعود إلى غناء حياتها بالرجال والأفراح؛ بحيث إنه كان يصعب عليها الارتباط بسيد درويش وحده، وقد تعذب الفنان كثيرًا فى هذا الوقت، والذين حضروا حفلاته فى الفترة المبكرة من حياته كانوا يستمعون إلى هذه الأغنية التى راح يصنع كلماتها من ذوب عشقه، ويرفع ألحانها من عذب حنينه:

يا للى قوامك يعجبنى
ليه بس ترضالى صدودك
يا هل ترى بتأدبنى
أكمنى عُذَّالى شهودك

أروح لين أشكى حبيبى
والدهر والعزّال حكام

الهانم :

وكلمـا زادت العائلـة هجرانه زاد شـوقه، وهيامه، ومـن هنا، فإنه راح فـى غيبوبة الهوى المستحيل يحيا طويلا، على أن الملاحظ لأغانيه فى هذا الوقت يلاحظ أن سيد درويش لم يكن من طراز هذا العاشق المستعطف الباكى دائمًا، فهو يحمل لوعة الفنان لكنه أيضًا يحمل بذرة تمرده، ومن هنا، فهو فى عنائه لها لم يكن مستعطفًا فقط، وإنما كان غاضبًا إلى درجة السخرية، عاتبًا إلى درجة التلويح بالأيدى والكلمات اللاذعة.

ومثل كل فنان متطرف، فإنه كان حينا يتحدث بأسـلوب هادئ كله سـخرية، وفى أحيان كثيرة كان غضبه يصل إلى أقصاه «فيردح» فى كلمات غاية فى الهجوم والغضب الشديدين..

إنه يعانى من هجر العائلة له، وغيابها عنه، وهو يعانى من صدها له ومغالبتها لحاله، فراح يعبر عن هذا بسخرية ممضة :

ما تطلعيش فيها يا هانم
كلها يومين وتعدى
ويترك مساحة صوتية فى هذه الطقطوقة ليعلو صوته من جديد
إنت السبب وحياة ربى
فى أصل تعذيبى وحبى
اصبر على الهجر يا قلبى
دى كلها يومين. وتعدى
....
عذابى لو كان يهنا لك
شىء مش غريب وحياة خالك
أد لدنيا مش دايمالك
دى كلها يومين.. وتعدى

وإذا كان الهجر يولد لديه اللوعة ويستثير فيه شجون الفنان وأحزانه، وإذا كان صد الحبيب يشـعل فـى قلبه ثورة الحب الأبدية، فإن الخيانة تحيل كل شـىء فـى حياة الفنان إلى غضب محترق، إنه علم أن جليلة هجرته لكى تتعرف على جواهرجى اسـتطاع أن يغمرها بماله وثرائه إلى الدرجة التى نسيت معها هذا الفنان الرقيق..

وهنا وصل غضب سيد درويش إلى أقصاه، وخاصة أن العالمة لم تكتف بهجره فقط، وإنما راحت كل صباح تتهادى أمامه فى «المرواح والمجى» وهى ترتدى فى قدميها خلخالاً من الذهب أهداه إليها الجواهرجى، وهذه الفترة أنجبت لنا أكثر الكلمات سخرية فى الأغنية الشعبية على مر العصور، لقد راح يهدهد أحزانه بكلمات لا يبدو فيها اليأس بقدر ما يبدو رنة التحدى..

الأكثر من هذا، أنه راح يضيف إلى الغضب والحزن إحساسًا بالتصدى لهذه الحبيبة الخائنة، وراح يصف لنا، فى كثير من العبقرية العفوية، مسرح الأحداث التى دارت فيها هذه القصة، وسوف نحاول هنا أن ننقل كلمات هذه الطقطوقة التى كتب كلماتها، ثم راح يلحن ألحانها، حتى أصبحت على كل لسان بعد أن أصقلها..

تقول هذه الطقطوقة التى تشبه وصلة من الانتقام من هذه العالمة ومن الجواهرجى صاغها فى كلمات:

فى الصاغة الصغيرة
شوف سوق العجايب
..
على الشمال أول دكان
صاحبه جدع اسمه القطان
عنده حلق خفة وكردان
وادى الحقيقة بتنكتب
تانى دكان سيبك منه
والثالث اللى باقول عنه
تاجر شهير ولا فيش منه
ولكل شىء دائمًا سبب
رابع دكان سلم لى عليه
دانا قلبى ما يملش إلا ليه
والخامس اللى اقبل ايديه
دا يساوى طب كيل ذهب
أما بقى ساتت دكان
استنى عنده يا أبو القصان
تلقى اللى فيه قاضى النسوان

عمر اللى زيه ما ينعتب

..

.. أم ركب

بيقولوا مرة عمل خلخال

ينفع ركاب لتلاته بغال

سألته مين لبسته يا عيال

قالوا جليلة أم ركب

هل لاحظنا نبرة السخرية العالية، والهجاء الحاد للجواهرجى، وقبل ذلك، هل لاحظنا الهجوم الحاد على الحبيبة الشاردة، التى أبت إلا التعرف على الجواهرجى، الغنى، تاركة الفنان، الفقير..

يقول ابن سيد درويش تعليقًا على هذه الأغنية:

(– خلخال.. ينفع ركاب لثلاثة بغال..!! إنه حقًا لخلخال غريب عجيب فى ضخامته.. كم يساوى ثقله فى ميزان الذهب..؟!! وكم يكون ثمنه فى ميزان المال..؟! لم يغن سيد درويش هذه الأغنية وحده بل لقنها لجميع عوالم الإسكندرية فأصبح الأطفال يغنونها وكانوا يمرون أمام الدكان.. (الصائغ) لإسماعه هذا المقطع كل يوم ليلا ونهارًا حتى ضاق الرجل ذرعًا وترك الميدان لمنافسه.. وهكذا انتقمت الموسيقى للفنان المطعون فى كرامته)

اطلع من دول..

وعلى هذا النحو، وجدت العالمة نفسها فى أفواه الجميع، كبارًا وصغارًا، فى وقت غضب منها الجواهرجى، فلم تجد غير العودة إلى الفنان لعلها تؤثر فيه، وتخدعه، فيرجع عن السخرية و (الفضيحة) لها..

تشير المصادر إلى أن سيد درويش ذات مساء فوجئ بالعالمة تعود إليه، غاضبة، مبدية الندم، دائمة البكاء، تقسم أشد الأيمانات بأنها خدعت فى الجواهرجى، وها هى ذى تعود إليه ثانية..

لم يكن سيد درويش غِرًّا حتى يخدع..

لقد حمل عوده وتركها وحدها دون كلمة عتاب.. أو هجاء وجلس فى حجرته الفقيرة فى جزيرة بدران، وراح يدندن بكلمات جديدة من طقطوقة (سيكاه) يبث فيها أشواقه، يقول:

اطلع من دول أنا مش منهم

ياللا اسرح دور على غيرى

وتتعطل الأوتار قليلا، ثم يواصل فى نغمة طويلة:

ما يغركش ضحكى ولعبى

دى أمور نسوان وحياة ربى

أحسن لك تسرح ع الشاطبى

وفضك منى ومن غيرى

ويصل فى السخرية إلى درجة قصوى:

بدك تعرف اسأل بابا

وإن كنت حويط مش على بابا

أحسن لك تسرح بربابا

وفضك منى ومن غيرى

وفى محاولة للهروب من هذا الجو الذى كانت جليلة فيه تأتى مرة مستغفرة وتبعد مرات غاضبة، كان عليه أن يفكر فى طريقة يهرب فيها من هذا العالم الذى يظل يقذف به من قاع اليأس إلى قمة الأمل، ثم يعود به مرة أخرى إلى قاع اليأس وهكذا..

عودة المجد:

وقد تصادف فى هذا الجو أن كان صيت سيد درويش قد بلغ إلى مداه فى الإسكندرية، ووجد الكثير من الأصدقاء والفنانين يحثونه للذهاب إلى القاهرة حيث يقدر فنه أكثر فى العاصمة..

وبالفعل، فإن سيد درويش لم يجد مناصًا من الهروب إلى القاهرة للفرار – فى المقام الأول – من جليلة، وربما – وهذا يأتى فى المقام الثانى – يستطيع هناك، فى العاصمة، العثور على فرصته الأكيدة فى الغناء والوصول فيه إلى مكانة عالية..

ورواد مقهى البوسفور فى ذلك الوقت كان من السهل عليهم أن يجدوا امرأة ضخمة الجثة تجلس فى الصفوف الأولى أمام المغنى الوافد من الإسكندرية – سيد درويش – وكانت تظهر فى كل حفلة فى هذا المقهى، حتى إذا ما انتهى الفنان من الدور الذى يؤديه أو الطقطوقة التى يذوب فيها حتى يجد نفسه وجهًا لوجه أمام العالمة، فيتجاهل ويحمل عوده، ويمضى مع كوكبة كبيرة من معجبيه.

ضيعت مستقبل حياتى:

وتكتشف العالمة بحس الأنثى أن الإقبال على الشاب الفنان والتردد عليه وعلى حفلاته يوميًا سوف يزيد من صدوده، ومن هنا، بدأت هى – على الجانب الآخر – وصلات اللوم والعتاب

المشـوب بالبكاء الطويل قبل أن تختفى لفترة من حياته، فى حين ظل من حوله، ومن (عذاله) بوجه خاص لا يتركونه فى حاله، ومن هنا، تحول الفنان، فى غياب جليلة، إلى النقيض..

وبعد أن كان يردد طقطوقة يقول فى آخرها (.. يا خى فضك منى ومن غيرى)، راح يغنى بورًا جديدًا، تصل الجدة فيه إلى درجة لم يسبقه إليه أحد، وهو دور شهير سجلته شركة (بيضافون) فيما بعد بصوت سيد درويش، وهو دور (ضيعت مستقبل حياتى) الشهير، يقول فيه:

ضـيعت مسـتقبل حياتى فى هـواك
وازداد علـى اللـوم وكتـر البغـددة
حتـى العـوازل قصدهم دايمًا جفاك
وأنا ضعيف ما اقدرش أحمل كل ده

أن جفاك يرضى علاك
أنا فى حماك عفو الحبيب
ما يكونش أحسن من كده

وينتهى المذهب ويبدأ الدور الذى يصل إلى أقصى نقطة فى ذاكرته المتعبة الحزينة، ونسـتمع لصوت سيد درويش نفسه:

علمتنـى يـا نـور عيـونى الامتثال
واحتار دليلى بين تيهك والجـوى
كنـت افتكـر حبـك يزودنى كمال
خيبت ظنى والهوى ما جاش سوا

تبقى سبب كل التعب
وتزيد غضب واللى انكتب
فوق الجبين ما لوش دوا

على أن سـيد درويش الفنان الحزين يصل غضبه على نفسـه إلى درجة أنه يخرج من أحزانه الغضة، ويرحل عن عالم المستقبل الضائع إلى عالم آخر لا يمت إلى الفنان عميق الحس فى شىء، فهو يغادر الدور الرزين إلى طقطوقة أخرى أشبه (بالردح) الذى يذكرنا بحوارى الإسكندرية وأبناء البحر الذين يقابلون الغضب بالتحول – فى التعبير عنه – إلى الوجه المناقض، إلى (الغيظ) الذى يصيب عدوهم فى مقتل، إن أسلوب (الردح) هذا يعبر عنه فى طقطوقة يقول فيها:

فلفل
اهرى يا مهرى وأنا على مهلى أكيد واتفرج
على دى الفلفل
ان كان
طول الهجر
يكيدك أنا راح اكتّر منه وازيدك
وان كان شىء
ممكن وبإيدك ياللا نتفرج على دى الفلفل
..
كام مرة أقول ما انتش قدى ولا يمكنك تحمل صدى
فلفلت قوام
من دى ومن دى
خليك تتدرج على دى الفلفل

على أن هذا الأسـلوب، الذى لا يتماشى مع إحساس فنان رقيق؛ يفسر، بأن سيد درويش – مثل كل فنان – يحوى فى داخله قدرًا كبيرًا من التمرد (الذى يسمى أحيانًا فى خبرات التحليل النفسـى بالتطرف)، وهذا التمرد – الذى نجده فى دخيلة معظم الفنانين – يصل بصاحبه بين النقيضـين، فتارة هو معتدل رزين، وتارة أخرى هو غاضب عنيف، وفى الحالين، يحمل الفنان قلبًا عطوفًا طيبًا، وهو ما يفسر به كيف يتأرجح من آن لآخر بين الطرفين.

ويدل على هذا أنه بعد طقطوقة (الردح) هذه، صفت مشاعره، وعاد إليه حنينه القديم، وراح يستعيد ما كان مسيطرًا عليه؛ من إحساس طاغ بالكبرياء الذى يدفع دفعًا إلى إيثار كرامته، وفى النهاية.

.. وانتهيت

وعلى هذا النحو، فإن المؤلفات الموسيقية تسجل لنا كلمات دور جديد، ربما كان من بين أهم أدوار سـيد درويش التى سـوف تخلده، وهو الدور الذى ورد فى مذكراته (كما أوردها ابنه حسن فـى كتابـه الهام (من أجل أبى..) فى بيان (دور حجاز كاركرد)، وهذا الدور تأتى مقدماته على هذا النحو:

أنا هويت وانتهيت
وليه بقى لوم العزول

يحب أنى اقول يا ريت
الحب ده عنى يزول

..

أنا وحبيبى فى الغرام

ونتوقف عن إكمال الدور ذلك لأن قراء هذه السطور يعرفون البقية لفرط عذوبتها ورقتها بصوت سيد درويش نفسه..

على أن الذى يهمنا هنا، هو، أن العالمة التى حركت كثيرًا من ماء البركة الراكض كان يمكن أن تحول هذا الماء إلى شرار يصيب صاحبه، غير أن الفنان العاشق استطاع أن يدرك أنه لن يكون ضحية علاقة هوجاء، الطرف الآخر فيها لا يعرف للهوى العفيف معنًى صادقًا.

ومن هنا، فإنه ما كاد يستقر فى القاهرة لفترة، ويتنقل بين الهوى والغضب وبين وصلات الغرام ووصلات (الفلفل المهرى)، حتى أدرك فى نهاية الأمر، أن المحتم هو أن ينتصر الفنان الذى كانت تنتظره مصر كلها.

كان على الفنان القادم من الثغر – سيد درويش – أن يدرك أن مصر فى السنوات القليلة التى تسبق ثورة ١٩١٩ مقبلة على ثورة دون شك، فراح يعمل فى أكثر من مسرح، ويتنقل فى أكثر من فرقة، وهو فى كل مرة يقترب أكثر من مشاعر الناس، حتى استطاع أن يلعب دوره الكبير فى ثورة ١٩١٩.

ويستطيع الكاتب أن يخصص مؤلفًا متفردًا للحديث عن دور سيد درويش فى ثورة ١٩١٩، لكننا نكتفى هنا (رغمًا عنا) بالإشارة إلى إحدى المقطوعات التى راح يغنيها سيد درويش فى ذلك الوقت بعنوان (بنات اليوم)، وعلى رغم أن هؤلاء البنات اللائى يغنى لهن سيد درويش بيننا وبينهن الآن قرابة سبعين عامًا، فإن الذى يسمع كلمات الأغنية يدرك – كما أدرك د. الحفنى – أن موضع الغرابة التى نحس بها حين نستمع إلى هذه الأغنية يعود إلى «سبقها لأوانها وتعبيرها عن حياة بنات يومنا الحاضر الذى نعيش فيه لا بنات اليوم الذى يعنيه» فى هذه السنوات البعيدة فى أوائل القرن العشرين.

وعلى رغم أن هذه الأغنية من تأليف أمين صدقى، فإن غناءها على لسان سيد درويش – من مسرحية قام بتلحينها – أضفى عليها معنًى عميقًا، ولا نستطيع إغراء نقل مقطوعة كبيرة من (بنات اليوم) لنؤكد بها على دور الفنان حينئذ.

تقول مقدمة أغنية (بنات اليوم):

دا وقتك دا يومك يا بنت اليوم

قومى اصحى من نومك بزيـــاداك نـــــوم
وطـــالبى بحقوقـــك واخلصى مـــن اللـــوم

ليه ما نكونشى زى الغربية ونجاهد فى حياتنا بحرية

معانا شهادات وديلومات
ونعرف بولتيكة بالسيع لغات
ليه ما نكونشى يا بيه زى الراجل ليه
قول لنا هو زائد عنا إيه

ويواصل عقب كل مذهب سؤاله الحائر:

مين فى دردحتنا وخفتنا مين

وقد كان التفات سيد درويش إلى القضايا الهامة التى تفرض نفسها عليه مؤشرًا على الوعى الذى وصل إليه، فقد أدرك أنه بالدخول إلى عالم الناس، والاقتراب من قضاياهم يكون قد اقتنع بأن هجر (العائلة) أصبح واجبًا عليه..

وبهذا، يكون سيد درويش قد أدرك أنه وصل إلى طريق المجد وفى اليوم الذى استطاع الفنان أن يتغلب فيه على نفسه، ويترك هواه إلى الواجب الذى ينتظره، راح يميل على عوده، وجلس صامتًا لبرهة ليعلو صوته قائلاً:

يوم تركت الحب كان لى
فى مجال الأنس جانب
ورأيت المجد عاد لى
بعد ما كان عنى غايب
مين يصدق بعد ميلى
أنى أقول الهجر واجب

وقد صدقناه جميعًا، وما زلنا نصدقه، فسيد درويش كان أنبغ من أنجبته مصر فنيًّا فى النصف الأول من هذا القرن حتى الآن..

هل يجرؤ أحد ويقول إن سيد درويش مات، أو ضاع مستقبله؟!

هل يجرؤ أحد..؟!

أهم المراجع

– يمكن العود لتفاصيل لقاء سيد درويش وجليلة فى بعض المواقع منها:

- http://www.mahjoob.com
- http://jarelkamar.manalaa.net/Sayed_Darwish

– تقول العديد من المراجع أن سيد درويش حين أحس بالحالة التى عاش فيها بمجرد أن عرف العالمة – جليلة، فدفعه الحال إلى ترك الإسكندرية كى لاتحدث له هذه الأزمات فى الحياة الاجتماعية وقبلها فى الحياة الفنية، على سبيل المثال انظر :

- http://jarelkamar.manalaa.net/Sayed_Darwish

obeikandl.com